الثقافة والساميون

« للعصور مهمتان رئيسيتان : الاولى : تحرير الفكر ؛ والثانية : العمل على خلق صورة جديدة من الحضارة الشرقية الصحيحة ؛ تخرج من روح الامم الشرقية مجتمعة » . فالجمع بين مناحي الثقافة المتنافرة فى انحاء العالم العربى ، ونشر مختلف الاراء والتعبير عن مباين المنازع التى تقوم فى عقلية الشعوب الشرقية ، من الاشياء الجوهرية التى تعنى بها العصور فى أول ما تعنى به من الخدمات الادبية . واليوم نقدم لقراء هذا الفصل الذى أرسل إلينا به أديب مراكشى معروف ، وبهذه المناسبة نغتبط هيئة تحرير العصور وأن تعلن بأنها ترحب بكل الابحاث والمنتجات الادبية التى يتفضل بها الادباء فى أنحاء العالم العربى »

لمحة

لا يعزب عنك أن المسائل المشكلة المتداولة بين أبناء جيلنا الحاضر فى فلسفة الاجتماع والتاريخ والسياسة تتلخص فى الكلمتين المشهورتين ، أى الشرق والغرب ، وعندى أن محورها ما تمكن تسميته بالمسألة السامية . ألا ترى أن برجسن (Bergson) وإينشطين (Einstein) وفرويد (Freud) وكورى (Curie) وهرتز (Hertz) وماركس (Marx) وهم ساميو أوربا ، هم الذين نسجوا الهيئة حياتنا الحالية الفضفاضة ، وألقوا بها فى زعازع الحرقة والقلق ، حاملين ألوية جلائل التصورات لسعادة الانسانية ، نعم إن الأمة السامية لفى دورها العائد نوراً واستيقاظاً . أنظر الى بيت المقدس فهو نيرها العتيق . وانكفىء إلى الأندلس نيرها الأكبر ، تلك الروضة الغناء ، تلك الغزالة العجماء ، غرناطة العرب ، التى مأوها الوفاء ، وشعارها الاخلاص ، إذ أرواحهم الكريمة تنم عنها حتى أيامنا هذه ، مع نفحات الذكر الخالد ، والمجد العائد . . . . فهى خليقة بأن تكون أيضاً مقر الأنبياء !

واليوم فلنضع — نحن الأندلسيين — ما بين شتى القوى الفكرية المأنوسة لدى المتنورين ، ، إمبراطوريتنا ، الأندلسية مازحة بين ضرب من التصوف ونوع من

الهزل الرقيق كي تمثل هكذا (السامية) التي تقيم للحياة وزن العظمة والاجلال ، متدرعة بالتقوى ومباينة لمذهب ألوهية الكائنات . فالسامي لا متيامن ولا متشائم ، بل تائق إلى قضاء ساعاته في الهدوء والطمأنينة ، فهو محب طاهر ، يحب الله تعالى ، والنوع البشري بعيداً عن الغيرة الحيوانية .

وهذا الكتاب ، فذلكة موجزة مقدمة لأعمال تأتي متتالية ، إنما هو كقانون تمهيدي لدرس مسألة جديدة ، طريقة تعالج أولا استخراج أسرار الوئام الكامن بين روح الأفكار الخالية وروح (السامية) الخالدة ، التي طالما تألقت بنوع خاص في الأندلس مع الفيلسوف الاسلامي ابن رشد ، والمفكر الكبير الاسرائيلي القرطبي موسى بن ميمون (Maimonides) ، وسينكا (Senique) ، وابن حزم ، وابن العربي ، وأخيراً باخطاء وخفوت مع المفكر الأندلسي كانفاط (Ganivet)(١) بافتخاره أنه سليل العرب . وثانياً تحاول توحيداً أدبياً بين شبيبة إيبريا الجنوبية وأختها الناشئة السامية الناهضة اليوم من طنجة إلى فلسطين ، ومن لبنان الكاثوليكي إلى مكة الاسلامية .

ولو سمحت لي بتحكيم مخيلتي لقلت : إن الذي ضم بين دفتي الكتاب : أشبه باصلاح عود قبل العزف والاتيان بالنغمة المطربة ، أو كشبوب نار القرى بين إخوان في أم القرى . أو مثلا كجواب من إفريقيا الشجاعة إلى رو دريق التقي .... نعم إن منهاج الحق لواضح حيث استوت الأندلس قائمة بلسان التوسط والموبقة إزاء اضطراب العالم . أعني انحطاط شعوب أوربا البالية والتهديد المريع الآتي من آسيا الصفراء ... ليستمد المسلمون والاسرائيليون والكاثوليك الساميون ، ضد اللادينية والفيولية ونفاق المجددين العصريين . إذ الروح السامية ، ابنة التوراة هي المنقذة الفذة للانسانية !

---

(١) أنخيل كانفاط (Angel Ganivet) كاتب غرناطي مبرز وسياسي حاذق . ولد سنة ١٨٦٧ م . في غرناطة وكانت له شخصية عجيبة واهتمام عظيم بأسرة وأجداده الاندلسيين حتى أفضى به إلى إنكار جنسيته الاسبانية قائلا إنه عربي وأن الاندلسيين عرب أكثر منهم أسبان . عاش في تكد دائم ورسائله مشهورة من هذا القبيل ، نفس حساسة متأثرة عظيمة ، انتحر وهو ابن ثلاثة وعشرين سنة .

الفصل الاول

1 — ظهور العالم الجنوبى — ما هو الشرق ؟ ما هو الغرب ؟ سؤالان ذوا خطورة مروعة وغموض كابتسام أبى الهول هائل ! تدور حولها وحدانية وعقلية العالم أجمع : سبنغلر (Spengler) ، كيزرلنغ (Keyserling) ، والس (Wells) ، فريرو (Ferrero) ، ميترلنك (Maeterlink) ، رومان رولان (Romain Roll-and) سوكلوف (Sokolov) ، جابطنسكى (Jabotinsky) ، ويزمان (Weizman) طاغور (Tagore) ، غندى (Ghandi) ، محمد على ، شوكت على ، حبيب اسطيفانو (Habib Estefano) ، ديستوسكى (Doiestowsky) ، رديارد كبلنج (Rudyard Kipling) ، إينشطين (Einstein) : أوكاكرا ـ كاكوزو (Okakura-Kakuzo) لينين (Lénine) ، موسولينى (Mussolini) ، مصطفى كمال ، زغلول باشا ، رضاخان وفى إسبانيا : أرطيكا كاسيط (Ortega Gasset) ، أسورين (Azorin) : ريكاردو ليون (Ricardo Leon) ....

كل المبرزين فى شعبة من شعاب الحياة النظرية أو العملية يحسون هذه المسألة العويصة تتردد فى أنفسهم الحصرة المغمومة . على أن الأمر خدعة سراب ، تتحقق للرائى عند الاقتراب ، إذ لو كنت باليابان لاعتبرت أمريكا لك شرقا والصين غرباً ، ولو سافرت إلى صحراء إفريقيا لميمت شرقا ، أو إلى مستعمرة الكاب فى القارة ذاتها لأمسيت بالغرب . لكن ما شأن روسيا ؟ ما شأن العنصر الأسود ؟ ما شأن الاسرائيليين ؟ .

فالأمر كما رأيت اعتبارى كسفسطة حزبى اليمين واليسار أو حكمى الجمهورية والاستبداد . فما يستلفت همتنا إلى تلك القارة الآسيوية العظيمة مع عناصرها ذات العدد القديمة . فأوربا إنما هى تابعة لها وملحقة بها ، أما نحن الناظرون اليوم إلى تأثير الأصل فى الفرع وجذب ذاك لهذا فى حين أخذه لجواهره ومزاياه . فآسيا من جهة تختطف ويداً تلك المزايا لتتقوى بها وتتنور ، ومن جهة أخرى تتكون روح شرقية فى طبقات الأوربيين نشاهد منها افتخار بعض الألمان ببوذيتهم وازدهاء اليابانيين

يروميتهم ... وهناك جل أقسام سفسطائية السياسية فيما يتعلق بالفريقين :

الشرق : محس بمأمورية ينجزها ، الغرب : شاعر بحياة موقوفة على العمل بلا فتور ، الشرق : مطبوع على مذهب المعرفة بالتصور الخيالى ، الغرب : مجبول على مذهب التحقيق الحسى الايجابى . الشرق : عتيق ، يقبل سلطة الآباء الأولين ، الغرب ميكانيكى ، الشرق : خيالى ، الغرب : عملى . شرق : نوم ، غرب : قلق ، شرق : روح أنثوية ، غرب : روح ذكرية ، شرق : « على نمط واحد » ، غرب : تنوع ، الأول : كتلة . الثانى : سلطة ، واحد : مقاومة ، آخر : تجدد ، وهذا ، اعتبارات أولى النظر أما أقوال العامة فهى كثيرة منها : الشرق : لباسه واسع مذيل . الغربى : ثيابه لاتقة بحيطة بجسمه . الأول : ذو لحية كثة وشعر رأسه ضاف . الثانى : محلوق اللحية قصير شعر الرأس . واحد زوجته طائعة ، آخر قرينته حرة . منية الواحد : شجرة ، عين ماء ، زريبة . بغية الآخر : التنافس الحيوى . الشرق عناصر ملونة . الغرب عنصر واحد أبيض ! كل هذه أغلاط على أغلاط . ومنافاة على منافاة للصواب والعقل ! وما كنت لأزعم أنى جئت بحل نهائى لأصعب مسألة من المسائل الراهنة ، أو أنتصر لأحد الفريقين . لكن أروم إبراز ركن ثالث من طى الخفاء قائماً حقيقة وحياً فعالا فى ميدان الحياة الاجتماعية ، ألا وهو عالم الجنوب المتوقد الزموع ولو تنكروه إنكار اليهود ليسوع ! ....

***

إن العنصرين الأسمر والأسود مضغوطان بين إفريقيا الجنوبية والساحل الجنوبى للبحر المتوسط الأبيض ، ومن الأندلس إلى بحر الجنجس . ويتآلفان من الفرس والساميين والحاميين ، والدب الايبروى واليونان والسودان . خلق موند من الكلدان والأشوريين وأوسع منهما . غاية ما رقيت اليه الثقافة الصحراوية فاجتمعوا حول العالم السحرى (سبنغلر) شعوباً جنوبية محضة متسلسلة من الاقليم الأندلسى والمغرب الأقصى إلى إيران ، ومتناسلة من رعايا الخلافة العربية ، تخومها أرخبيل الروم إلى مقدونيا وإيطاليا والأندلس إلى بلنسية وطوليدو . والأفغان إلى شمال الهندستان . ولهذا الخلق أيضاً منطقة فى إفريقيا السوداء قابلة للتوسع والنمو ، حيث

المسلمون السودانيون وأدنة السيارات الجزائريون والطائفة السنوسية ، والمصريون والحبشة يتقدمون دائماً بمسايرة الثلاثين مليوناً من المسلمين السود و بمساعدة النخوة الهندية والاسلامية فى الأفغان فدارهم الأبوية ومصدرهم الدولى بجموع الأراضى المعروفة بالأمة المختصة بالبحر المتوسط ، تضم أقطاراً عربية ومستعربة ، أعنى بالأولى العراق البحرين ، الحجاز ، نجد ، اليمن ، عسير ، حضرموت ، عدن ، الشرق الأدنى ، الشام بمناطقه السياسية ، مصر ، السودان ، تونس ، ليبية . و بالثانية : ألبانيا واليونان وجزيرة قبرس . ثم إن هناك عصبيات وطنية بدون مقر ثابت ، تتألف من الاسرائيليين والأرمن وقوقاز فى كرج وزركش .

هذا هو الشرق الأدنى ، مهد كل ثقافة وكل دين ، نصب الانسانية ، معمورة ذات الآلاف من العينين التى يلحقونها بقارة آسيا خطأ و يعدونها كالرجل الهجين شيئا وسطاً . كلا إنها لأرض شريفة تطالب بحق زعامتها على رأس الجنوب وإفريقيا الجنوبية (عدا الكاب) وشمالى غرب الهند وما البارز الحاد من هذه الكتلة إلا الأندلس التى تنجلى فيها خواص الجنوب و مزايا أهله وهيئة حياتهم ، وقوة مدافعتهم للشرقية و الغربية .

والآن يجب على القول بأن هذا الترتيب ليس بالصرف المطلق ، إذ الكلمات الثلاث لا تنبىء عن مجموعة شعوب فحسب ، بل هى عبارات عن قوى روحية سائدة فى أنحاء العالم مع وجود مناطق المزج والتضاد فى شعب أو شعوب ، كما فى الدولة الألمانية التى هى بين الشرق والغرب (سياسياً) ، أو كاسبانيا التى هى بين الغرب والجنوب ، أو كالهند التى بين جنوبها الاسلامى وشرقها البرهمى .

2 — خواص الأقسام الثلاثة — وتمحيص الحقيقة أن الشرقيين(١) يتصورون الكون تصوراً أجوف ، أى ذا قوة متجهة إلى « داخل » فيرونه إلهاً . ومبدأهم يتلخص فى ضمير الغائب ، ضمير المجردات : هو . يخضعون أمام الكائنات ويضعون العيش شيئاً اعتبارياً لا حقيقة له ، شاكين فيه وفى أنفسهم (الأنانية الممقوتة عند البوذ) الطبيعة كعبة عبادتهم أينما وجدوا فيها . فهناك وطن لهم ، يعمل فيهم الماضى

(١) يعنى المؤلف بالشرق هنا الدول تنتظمه التعاليم الاسلامية أو الثقافة الاسرائيلية

والفضاء والغريزة . حقيقتهم أن لا يقبلوا حقيقة مطلقاً . فيقولون « كل شيء إله » أو « أنا إله »

ولهذا المذهب مجريان يلتقيان ويتكاملان :

١ . إخاء مع الكون وتفان فى محبته (تأمل أديان وفلسفات الصين واليابان)

٢ ازدراء بكل حياة وبكل طبيعة (نرفانا البوذ وعدمية Nihilisme الروس والتتار) . يقول الرجل الشرقى :

إن خليقتنا إلهية إذ يجتمع فينا الخالق والمخلوق . البسيط والمركب . المبدأ والنتيجة . المعنوى والحسى . الحياة خط دائر مسدود سره سرمد البحار وجزرها دون أن تخرج من مدارها أو تنقص ، ليست غايتنا عن الحقيقة ولا عن الخير . إذ ليس العقل والارادة والوحى الخ . إلا كلمات جوفاء لا طائل تحتها . إن الرجل العارف بأنه جزء من الاله لا يحتاج إلى حقيقة ، لأنها فى نفسه . وما عليه أن يجد ويكد فى اعمال فكرته . وإمعان نظرته ، ليجلب على نفسه بلابل يستوجب مضضها فيكون كالباحث عن حتفه بظلفه ، أو كالجادع مارن أنفه بكفه . . . ويقول :

كل حي ميت وكل موجود مفقود ، كل شيء كالأضغاث يلتف بعضها على بعض ، أو يتسرب ليتغلغل فى مراوى المبهمات . . . إن الحياة عارض غرورى فى سلسلة التكون اللانهائى ، مرحلة من مراحل الاستحالة الحيوية (مذهب التناسخ) تموت لتفك مركباتها وتعود إلى بساط . فتدخل فى الله الذى هو الدهر أو البعثرة الكونية .

إن الشرقى لا يعرف حدوده . تأب نفسه فى الفضاء لتتفسخ وتتدبج فى الطبيعة . نهايته كما رأيت هى الاعتراف بأنه لا توجد حقيقة ، وأنه — هو — مجموع مركبات مستحيلات ، لا أحد فيها ، يتصور المادة كتجسم نفوذ غريب غير حائل ؛ يصير التراب نباتاً ، كذلك ، والنبات حيواناً ، والانسان تراباً الخ . . . أنظر رمز التنين الصينى إلى القوى المسببة الولاجة فى الأشياء ، بطرق شتى مناسبة لأغراضها ، دون أن تبرز لنا فى أوصافها (اللانهائية) . وهى — أى الحياة — فى نظره عارض ألمى مأسوف على وجوده ، فيدع نفسه تتناءد لكل تيار المعيشة ، فلا يبدى إرادة ، ولا يهتم بمعاده .

ثم ينفذ عملياً النظرية الآنفة الذكر بتلقين الوسائل الموصلة إلى إفراغ الأدمغة من كل شيء خارجي (نرفانا) و باعتبار نفسه مساوية مثلا للشجرة أو الكرسي و باعتقاده من جهة أخرى أن العيش ألم والألم يتولد من الطمع ؛ فيميت هذا بقتل الأنانية فيه و مطامحها ، و يطرح عنه ملغياً كل ائتلاف معان وكل انفعال من خير وشر ، أي الأمور التي تتدافع أو تتجاذب كما في حياة الافراد ، لا مقدس و لا مدنس في نظره ، لا روحي و لا حسي ، بل كل الكون تهي فارغ . « قل إن حياتنا السرمدية لا تتوقف ولا تتوطد على أعمالنا ولا اجتهادنا ؛ الامر الذي إن اعتمدنا عليه نظل بعيدين عن إنقاذ أرواحنا » . . « العالم يذهب مع ذهاب روح الانسان . . من عرف نفسه عرف العالم » . . . . « إن خير العلم جهل كل علم » . . . . « ضع اهتماماتك في ظفر خنصرك » (طولسطوي)

هذا هو الشرق أرض الغريزة والتقليد ، والبعثرة والجماهير ، وعدم الانانية . هذا هو الشرق بقوته الادبية الثلاثية : روسيا — الهند — الصين ، و أعلامها المتآزرين : غندي — ديسطوفسكي . طاغور — طولسطوي . بوذا — لينين ، شرق البوذ الاحمر والصقلبية المضادة للغرب ، ويابانية طاكنوبو - مروبوز Takonubo-Morobuse وأوكاكرا كاكزو Okakura-Kakuzo .

***

أما الغرب ، فتصوره للوجود تصور مقبب — أي قوة حركته متجهة إلى « خارج » — . مذهبه يتلخص في ضمير المتكلم (أنا) فلا تسيطر عليه الطبيعة ولا الحياة إذ يعتبر نفسه سيدهما بمزية التقدم والارتقاء اللانهائي . هو مطلق العنان ، يذهب حيثما شاء ، وكيفما شاء ، واثقاً بعقله وقوة إدراكه ، فكعبته الانانية المطلقة المغرب ، أراض تختار فيها الاوطان ، ويهتم سكانها بالمستقبل والزمان والادراك العقلي (مقابلة الماضي ، والمكان ، والغريزة في الشرق)

إن حقيقة الغرب تنافس دائم بين ما يعتقد فعله وما يفعل حقيقة ، ثم شوق مضطرب إلى الوصول الى ما وراء الكون ، ثم ثقافة حائدة عن الاهتمام بالحياة غير إنها لا تكون مفارتها ، ثقافة منتقلة حيث يغلب التصور الذهني غير مقيد

والذى لا غاية بعده . أعني أن الغربى يجد الحقيقة لنفسها لغرض عملى أو كسبى . شعاره . . انحلال العلم فى منتظم تناسبات نوعية كنغمة موسيقية لا نهائية للفضاء الفلكى . كل شىء يقاس على قدر القوة المحدثة له بكمية من العمل المحقق من حيث هو نفوذ مخزون » . . . هذا تحديد العلامة سبنغلر (Spengler) فى حق الروح الفوستية فنطلقه هنا على الثقافة الغربية . « إن كمية مفروضة من قوة نفوذية هى ناموس انتشارى مفعول ومستقل عن كل حاسة اللمس أو البصر . ولا معنى فيه للصورة أو للهيئة » .

يرى فى الروح الغربية اهتمامان رئيسيان : ١ — استعداد لغالب فى حرص ابتغاء نيل إدارة وقوة . توق الى التفوق والتحول ومطابقة الجديد المستحدث يخيل اليهم أن غايتهم تباعدت كلما اقتربوا منها . يطلبون الزيادة ويحتقرونها اذا أدركوها . ربهم علم الجبر . لا تنافس ومناظرة فى مسألتى العقل والارادة . استثار بالفهم والنهامة والنشاط . طرد كل بسيط وكل لائق لأول وهلة ، غاية فى العمل . غاية فى الطموح غاية فى حب القوة والسيطرة .

واذا سمعتهم يتحدثون عن عظيم من عظمائهم تلقيت هذه الكلمة : « قد تفوق » لا يحس و يطرب الغربى إلا للفضاء ولمضى الرجل فى اللانهاية إما بسلاح العقل و إما بدرع الخيال . إن روح (Faust) سائدة فى الدول الغربية بتثقيفها للضمير الخلقى و بنظرها فى الماضى و تحليلها فى الفضاء . ليبث قوته المطلقة » .

هذا هو الغرب بشعوره لأغلاطه ونقائصه مع اعتقاده الصميم أن لا حد لقدرة الانسان وعقله .

يشتمل الغرب جغرافياً و تاريخياً على إيطاليا (روما أم الغرب) وفرنسا وألمانيا (الموجة خيفة من آسيا القريبة منها) والنمسا والمجر والنرويج والعالم الأنجلوسكسونى والعالم الأسبرى الأميركى ، وسويسرا وبلجيكا وهولاندا والبلقان . تخومه ومناقذه مقاطعتا كطالونيا وجليقية باسبانيا . وأميركا الفتاة .

أما الجنوب . فشكل تصوره للحياة منبسط — أى اتجاه قوة حركته مستدير ، أو إهليلجي — مبدأه يتلخص فى ضمير المخاطب (أنت) تغلب عليه الفكرة

التجريدية الدينية . والميل الى المؤاخاة على النمط الاعتقادى ، فروحه مباينة لميكانيكية الغرب المعقوتة وبداوة الشرق الذليلة . آلهة فرودية : تصوره للعيش فتان ، الحياة سلسلة مراتب مودع فى كل منها روح تقوم بواجبها ليعد هذا جزءاً مقضياً ومنجزاً من مأمورية عظيمة دائرة .

الجنوب أراض حيث الوطن يتصور ويبنى . وحيث أهمية (اليوم) غير محدودة ، والأمس نسبة اليه طاعن فى القدم وسابق للازمنة التاريخية ، وحيث المستقبل مستمر لزمان الحال الى الأمام ، وحيث النشاط له قيمة ، والادراك البديهى سيادة .

وهنا تسنح لى الفرصة لأنى بعجز كل متصد لهذا العمل عن الاتيان برمة حقيقة الجنوب فى نهارها الجلى بين الفكرات المبددة أثناء هذا الكتاب العديم النظير اللائق التصانيف الاجتماعية الضافية ، إذ لا غرو أن عملا كابراز حقيقة اجتماعية عظيمة يستغرق عمر الانسان ، فتجليتها وإماطة الستار عنها ، يجعلنى اذاً مضحياً عملى فى سبيلها طيلة حياتى . والآن أكتفى بأن أقول إن الجنوب يروم تحقيق المثل الآرى ، يعمل أبى فأنسج على منواله ، فهو مباين للشرق والغرب باعتقاده أن الله ليس بقوة النواميس (١) الطبيعية ولا هو بالفضاء اللانهائى ، وإنما هو رب العالمين المهيمن الذى يصرف عباده بالهامه الى مقاومة القوى الهيولية وتأثيرها فيهم بافسادها مواهبهم الشريفة السامية . ومن خواص خليقة الرجل الجنوبى أنه لا يملك نفسه إلا حيناً وأحياناً ، تملكه فطرة حركاته ، وأنه يعلى قيمة السطحيات لمقاومة نفوذ المادة . ويتأتى لنا كشف سره بتحليل اشاراته وإيمائه ووقفته وطبعه . وقبل أن ألتفت اليه ألتزم بأن أقول — بكل صراحة — : لا شرق ولا غرب . فما النور الآتى من الشرق إلا ذاك الذى ينسحب ويتقاص عن أوربا مجتازاً بأميركا ومعيداً دورته ، لتقفل السنة والسنون . . أما اذا أردنا ذاك الشرق البعيد ، الشرق الذهبى الموصوف فى أقاصيصنا القومية ، فلنطلبه بوصلة كركطو Cocteau الذى يقترح علينا الفحص عن اللؤلؤة الشرقية فى لونها وهيئتها الخ . وإلا فما الشرق سوى هوس فى قلوبنا يجعلنا نصبو دائماً إلى الأشياء الغريبة السحرية .

وللكلام بقية .

---

١ — أى الله تعالى